

الاتجاهات الكبرى لحركة النهضة

1- حركة الإصلاح الديني

لدى الباحثين عدة تصورات في دراسة حركات الإصلاح الديني. ومن المؤكد أن قراءتنا المعاصرة المحكومة بسياقات الراهن (الحداثة- الديمقراطية- الصراع..) تؤثر في تلقينا لتلك الحركة، ومن هنا اختلاف وجهات النظر في تقويم تلك الحركة. ولا بد أنها حركة سباق (هي أولى ردود الفعل على الضعف والانحلال حسب علي المحافظة ص 37 وجذورها في نظره تعود إلى ابن تيمية ت 1327م). ويميز علي المحافظة بين حركات ودعوات إصلاحية (سلفية) (محمد بن عبد الوهاب بنجد ت 1791 - الشوكاني باليمن ت 1834- الأوسيان بالعراق محمود صاحب روح المعاني ت 1853 ومحمود شكري ت 1924 - السنوسي محمد بن علي بليبيا ت 1859 ..) وبين اتجاهات حديثة في التجديد الإسلامي (جمال الدين الأفغاني ت 1896- محمد عبده ت 1905- محمد رشيد رضا ت 1935). ومن الواضح أن البحث في الاتجاهات الحديثة [وهي التي تهمننا هنا] انحصر في مصر، وهو مجال غير كاف خاصة إذا امتد إلى أوائل ق 20.

يعتقد نعيم اليافي أن المصلحين عبّروا طيلة نصف قرن عن الحركة ولم يشكلوها بالفعل؛ إذ لم يكن لهم مشروع واحد بقدر ما دعوا إلى خطوط رئيسية انطلقوا في صياغتها من الإسلام كما تصوره (حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة لنعيم اليافي ص 30). ويوضح أحمد بركاوي أن المصلح الديني انطلق " من إحساس واقعي بالعالم، العالم الذي يعيش بعيدا عن شمس التقدم. عالم خرب في كل مظاهره بما فيه الإسلام ذاته. وخراب الإسلام - كما يرى المصلح الديني النهضوي- خراب مدمر. وما خراب حال الإمبراطورية العثمانية إلا انعكاسا لما وصل إليه الدين والتدين من انحطاط. غير انحطاط الدين والتدين لا يصدران عن جوهر الإسلام ذاته - كما اعتقد المصلح- بل عن ما علق به أو عن ما استغل لأجله " (محاولة في قراءة عصر النهضة 60 وعلي المحافظة 70-71). فضرورة إصلاح الإمبراطورية السياسي والاجتماعي يجب أن يسبقها إصلاح ديني؛ لأنهما مترابطان كترابط انحطاط الدولة وانحطاط الدين (السابق ص 61). وذلك بالعودة إلى الإسلام النقي الخالي من الصدا، وذلك أدى إلى موقفين (أو وظيفتين) هنا: - العودة إلى ينبوع المحمدي ومرحلة الازدهار. - التدليل ما أمكن على عدم وجود تناقض بين الإسلام والاتجاهات الإنسانية الأوروبية التي أدت في نظره إلى تقدم أوربا (نفسه ص 61 وأركون: الفكر العربي).

يلاحظ آخرون اختلاف ظروفات المصلحين الدينيين (اليافي ص 30): التغيير الفوقي (الثورة والانقلاب كالأفغاني) أو التغيير الأفقي (التربية والتوعية كمحمد عبده).. وتقسيمهم حسب تأثير النشأة الطبقية...

وسنستنتج:

- يبقى البحث مفتوحا لتوسيع جغرافية الإصلاح الديني عبر دول كثيرة.
 - البدايات كانت منذ رفاة الطهطاوي (ت 1873) وخير الدين التونسي (ت 1879) وعلي مبارك (1893) وغيرهم، وستستمر إلى ابن باديس (ت 1940). (الفكر النهضوي العربي: الانكسار البنيوي لفؤاد خليل ص 213.. واليافي ت 29).
 - يصعب الفصل بين البرامج الإصلاحية الدينية الخالصة والاجتماعية والسياسية في تلك الفترة.
 - اعتراف المصلح الديني بنشوء الإسلام والممارسة الدينية جراء جهود التخلف (تبدأ منذ ابن تيمية).
 - تأكيده على ضرورة مساندة التغيير الذي لا تجلي له خارج المنظومة الغربية
 - اهتمامه بربط الإصلاح الديني بالأبعاد الاجتماعية والسياسية الضرورية للتغيير
 - تحرير طاقة الإسلام لمواجهة الاستعمار، فاستعادة الهوية ضروري للذات في مواجهتها للآخر.
- لتقصي برنامج جمال الدين الأفغاني الإصلاحي ومحمد عبده ورشيد رضا يراجع علي المحافظة، ص: 71 وما بعدها.

2- الاتجاهات السياسية

مما سبق يمكن أن نلاحظ بعض المؤثرات:

- نتج عن الرحلات والبعثات والاحتكاك بالغرب اطلاع الشباب والمثقفين على التنظيم السياسي الديمقراطي ومستلزماته كالدستور...
- نتج عن الاستعمار إحساس بأهمية النضال السياسي، سواء في التوعية والتحرير أو في تقديم المطالب إلى الهيئات الدولية.

نتج عن توتر علاقة المركزية العثمانية مع العرب خاصة في فترة ضعفها وتسلط ولاتها وخصوصا في الشام طرح مطالب سياسية (إصلاحية وانفصالية).

وفي دراسة علي المحافظة انتهى إلى تحديد أهم التيارات السياسية في فترة النهضة؛ وتلخص في نظره في:

تيار الجامعة الإسلامية:

والمقصود مختلف الرؤى السياسية التي تبنت فكرة توحيد المسلمين في مواجهة خطر الاستعمار وغيره. ويرى أن فشل التجارب القطرية كتجربة الأمير عبد القادر من أهم أسباب قيام هذا التيار، لكنهم يرون وجوب توفر نهضة صحيحة وعودة إلى صفاء الإسلام بل وضرورة تقليد الغرب (المحافظة 109-110). وأشهر أسمائه جمال الدين الأفغاني الذي بدأ الدعوة للفكرة منذ 1875، وأنشأ جمعية (أم القرى) ضمت ممثلين عن عدد من الأقطار الإسلامية. وتركز على أهمية الوازع الإسلامي في معركة ضد الاستعمار، وأهمية الوحدة الإسلامية، وبعث روح المقاومة، وإدخال مختلف الإصلاحات (سياسية - اجتماعية - اقتصادية ..) إلى الدول الإسلامية. ويبدو أن المركزية العثمانية حاولت استغلال الفكرة لإبقاء الولاء لها كخلافة (وهو ما نبه إليه مصطفى كامل). وقد يكون من أهم مزاياها إحياء الشعور بالوحدة، وتنمية روح التضامن بين المسلمين. مما جعلها في ضمير وسلوك كثير من حركات التحرر الوطنية، بل يمكن اعتبارها أساس منظمة مؤتمر الإسلامي.

تيار الرابطة العثمانية:

ارتباط الإسلام وتاريخه بالخلافة، وطول فترة الخلافة العثمانية جعل عددا من المفكرين في القرن 19 يرون إمكانية استمرارها. والغريب أن ظهوره كان لدى مصطفى كامل والحزب الوطني بعد الاحتلال البريطاني لمصر، وكذلك خليفته محمد فريد ومحمد عبده وأحمد عرابي، فهي بالنسبة إليهم ضمان للوحدة، ولهذا كان الثوار الوطنيون يعتقدون في نجدة تركيا لهم.

تيار الوطنية الإقليمية:

أي التيارات الوطنية بالمعنى الذي ظهر عقب الاستعمار الحديث. فكان الطهطاوي ومحمد علي منخرطين في هذا المنظور، ويهتمان بتطوير مصر وترسيخ روح التسامح بين أفرادها تحت مسمى (الوطنية). وكان تأسيس الحزب الوطني 1879 بداية واضحة للمشروع الذي دعمته ورسخته الصحف فيما بعد، كما أن الجزائر عرفت مع حمدان خوجة بداية ثم مع الحركة الوطنية فيما بعد (المحافظة 121-129).

تيار القومية العربية:

دخول البروتستانتية إلى العرب، انفصال كاثوليكيها عن روما، ومشكلة اضطهاد المسيحيين من طرف بعض الولاة العثمانيين، أدى إلى ظهور ثم تنامي الشعور القومي. وقد طرح سليم البستاني الفكرة منذ 1870، ثم أسست طلاب الكلية الأمريكية السورية البروتستانتية جمعية قومية أولى (جمعية بيروت السرية) 1875، طالبت باستقلال سوريا، والاعتراف بالعربية لغة رسمية، وبحرية التعبير، وبمحلية الخدمة العسكرية. ومن أعضائها نمر فارس ويعقوب صروف وإبراهيم اليازجي الذين طالبوا صراحة بوحدة العرب ضد الأتراك. وأنشئت في 1881 جمعية سرية أخرى (حقوق الملة العربية) طالبت بحقوق العرب، وكذلك حلقة طاهر الجزائري، ودعوة عبد الرحمن الكواكبي إلى خلافة عربية بدل الخلافة العثمانية (المحافظة 129-132)، ثم محب الدين الخطيب (جمعية النهضة العربية) ونجيب عازوري (عصبة الوطن العربي). وفي 1910 أسس محمد رشيد رضا (جمعية الجامعة العربية) وأيده أمراء الجزيرة العربية واليمن وغيرهم. يراجع: أحمد برقاي، ص 81 وما بعدها.

3- الاتجاهات الاجتماعية

حضرت القضية الاجتماعية في صلب عملية الإصلاح والتغيير، فالمجتمع العربي كان موروث مجتمع عصر الانحطاط، تحكمه علاقات تقليدية مبنية على الإقطاع، ويسوده التدهور والانقطاع في مختلف المجالات. غير أن الاطلاع على المجتمعات الأخرى وكذلك الاستعمار كانت أسبابا قوية لإعادة النظر في المسألة الاجتماعية. بعبارة أخرى فإن النهضة طلعت على عالم شرقي مريض، ويمكن وصف المجتمع العربي آنذاك بأنه:

- موروث مجتمع عصر الانحطاط (جهل - تخلف - فقر - خرافة..).

- غياب مفهوم الحقوق للأفراد والجماعات (نظريا وواقعا) مما قتل كل المبادرات.

- ظهور (مفاسد) أخلاقية جديدة ومظاهر غريبة، نتجت عن سوء التعامل مع الوافد الأجنبي (الانبهار - التقليد الساذج).

فقد اهتموا مبكرا، ولفترة طويلة (إلى الآن) بهذه المحاور، وتحمسوا لها في نطاق دور إصلاحى تربيوي/طليعي/نهضوي.. أخذ أحيانا لهجة الثورة والاندفاع لدى البعض. وسيكون التوجه نقديا تصحيحيا، أما على مستوى الاقتراح وتأسيس (الجديد - البديل)، فإن (النقاش - الصراع) يحدث؛ لاختلاف وجهات النظر (المشاريع). ستكون الموضوعات الاجتماعية إذن حلبة الصراع الفكري/الأيديولوجي.

البحث في أسباب تخلف المجتمع العربي:

رأت الحركات الإصلاحية الدينية أن سبب التخلف هو البعد عن الإسلام الصحيح وتضيف الحركات الحديثة عزوف المسلمين عن الأخذ بالحضارة الغربية، مع رفض (التقليد الأعمى)، بينما رأى سليم البستاني أن الانشقاق الداخلي هو السبب... لكن الباحث يلاحظ عمدة محاور ضمن هذا الاهتمام:

الدعوة إلى الحرية والمساواة:

لهذا الموضوع علاقة مباشرة بالاتجاهات السياسية، ولا بد أن لنظام الحكم العثماني (في أواخر أيامه) وظاهرة الاستبداد التي تشيبت فيه، وتمييز الأقليات وغير الأتراك، دور كبير في دفع حركة الدعوة إلى الحرية والمساواة. فاتجه المفكرون إلى الدعوة إلى حرية التفكير والتعبير والحرية السياسية. وبرز هنا عمل الكواكبي (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) 1904 كنص متميز وذو دلالة خاصة. وقد خصصه لمساويء الاستبداد وأثره في قتل الدين والتربية والحضارة والأخلاق وحب الوطن والأسرة والروابط والإدارة. (يراجع علي المحافظة).

الدعوة إلى العدالة الاجتماعية

يشير علي المحافظة (ص: 177) إلى أن رفاة هو أول من عالج الموضوع، فقد عاصر ازدهار النقاش الاشتراكي في أوروبا وطبق الفكرة على الفلاح المصري وطبقة الملاك والإقطاع، فدعا إلى إعادة الاعتبار للعمل وتوزيع الإنتاج بناء عليه. لكن أحمد فارس الشدياق (1887) كان أقوى في الدعوة إلى العدالة الاجتماعية وإبراز خطر التفاوت الطبقي. أما المتأثر صراحة بالاشتراكية الأوربية فهو عبد الرحمن الكواكبي إذ دعا بوضوح إلى (الاشتراك العمومي المنظم) يقول: " لو عاش المسلمون مسلمين حقيقة لأمنوا الفقر وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنظم التي يتمنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجي. وهم لم يهتدوا بعد لطريقة نيلها مع أنه تسعى وراء ذلك منهم جمعيات وعصبيات مكونة من ملايين باسم (كومن وفيان ونيهلست وسويالست) كلها تطلب التساوي أو التقارب في الحقوق والحالة المعيشية" [أم القرى]. وهكذا تحدث أيضا جمال الدين الأفغاني عن اشتراكية الإسلام المختلفة عن اشتراكية الغرب.

تحرير المرأة

لم تكن الصورة الأولى في وثائق النهضة لحرية المرأة إيجابية سواء عند عبد الرحمن الجبرتي (ت 1800) وبعض إشارات الطهطاوي، لكن الأخير نقل صورة براقية للمرأة الفرنسية في رحلته، وعندما عاد إلى مصر دعا إلى تعليم المرأة وقد ألف كتاب (المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين). لكن الشام سبقت إلى تعليم البنات فافتحت أول مدرسة للبنات [المسيحيات أساسا] في بيروت 1826 تحت إشراف الإرسالية الأمريكية (القس طومسون)، أما أول مدرسة لتعليم البنات بمصر فسنه: 1873. وكان الكواكبي من الدعاة الأقوياء لتعليم المرأة. ويبدو أن الموضوع عرف جدالا واسعا ابتداء من نهايات القرن 19؛ ذلك أن وضع المرأة الاجتماعي (التقاليد) والثقافة السلبية الموروثة وقفا حائلا قويا أمام كل منظور تجديدي أو إصلاحى. لكن المفكرين اتفقوا - رغم خرفهم حول المساواة - على ضرورة تعليم المرأة، أما عمل المرأة فلم تظهر الدعوة إليه إلا مطلع القرن 20 مع قاسم أمين (ت 1908) وكرس لها كتابيه: تحرير المرأة 1899- والمرأة الجديدة 1900، واستقبل الكتابات بردود كثيرة وبالتضييق عليه.

وكان يماثله في العراق جميل صدقي الزهاوي في الدعوة إلى تحرير المرأة، الذي انبثقت له الردود وطرده من عمله. ثم تتابعت الحركة بعد تأسيس عدة مجلات نسائية في مصر والشام. لكن المسألة انحسرت بعد الحرب العالمية الأولى بعد خروج إلى التعلم والعمل.

4- العلمية:

كان أول اطلاع للعرب على العلوم الحديثة ومنجزاتها خلال حملة نابليون، ثم من خلال الرحلات والبعثات العلمية، والاستعمار الحديث. وقد نادى المفكرون الأوائل (الطهطاوي- خير الدين التونسي) (ثم الأفغاني ومحمد عبده..) بضرورة اكتساب العلوم الغربية بوصفها السبيل الوحيد للحاق بأمم الغرب والتطور والتنمية والتحرر أيضا. وفي الوقت نفسه تمت عدة أعمال لدعم هذا الاتجاه (بناء مدارس- بعثات..) مما مكن من إدخال العلوم الحديثة إلى المدرسة رغم استمرار تحفظ البيئات العلمية التقليدية كالأزهر. وقد برز داخل دعاة التوجهات العلمية (احمد لطفي السيد - سعد زغلول..) جناح مندفع يبعد الدين ويركز على العلم فقط (يعقوب صروف - نمر فارس- جورج زيدان..) ومنه برزت الدعوة إلى علمية علمانية صراحة لدى شبلي شميل (ت 1917) فترجم النظريات الغربية الأساسية، ومثله فرح أنطون (ت 1922).

يراجع بوجه خاص:

المرجع المعتمد الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، علي المحافظة

حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة، نعيم اليافي

محاولة في قراءة عصر النهضة، أحمد براقوي

الفكر النهضوي العربي: الانتكاس البنوي، فؤاد خليل